

المبحث الثاني

وساطية الإسلام

وسطية الإسلام من أبرز خصائصه ، وهي بالتبع من أبرز خصائص أمة الاستجابة قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »^(١) ولذلك تجدد الإسلام يقدم المنهج الوسط في كل شأن من شؤون الحياة ، ولا يكتفي بهذا ، بل يحذر من المصير إلى أحد الانحرافين : الغلو أو التقصير يقول تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»^(٢).

وهذه الوسطية التي تميز الإسلام عما سواه من الأديان هي العدل فإن معنى قوله عز وجل « أمة وسطا » أي عدولاً خياراً وبهذا التفسير جاء القرآن والسنة وبه قال أهل التأويل وأهل اللغة حتى صار اتفاقاً .

فأما تفسير هذه الآية من القرآن فيتين مما يلي :

١- أن هذا المعنى هو المتسق مع بقية الآية ، فقد كانت الوسطية علة لتكليف الأمة بالشهادة على الأمم « لتكونوا شهداء على الناس » والشهادة لا تقوم إلا بالعدل ، ولا تقبل إلا من عدل^(٣) .

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) سورة الفاتحة الآيتان ٦ ، ٧ .

(٣) ينظر ما نقله الحافظ ابن حجر عن ابن بطلال ، الفتح ج ١٣ ص ٦١٣ وينظر محمد أبو شقرة تنوير الأفهام

ص ٥٤ .

٢- قوله تعالى : « كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ^(١) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، بين وصف الأمة بالخيرية ، ووصفها بالوسطية تلازم ؛ إذ أن الوسط في لغة العرب الخيار كما سيأتي بيانه بإذن الله ^(٢).

وأما السنة فقد جاء تفسير وسطية الأمة بعدالتها صريحاً فعن أبي سعيد الخدري ^(٣) رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجاء بنوح يوم القيامة ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم يا رب : فتسأل أمته هل بلغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من نذير فيقول : من شهدوك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيجاء بكم فتشهدون ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » قال : عدلاً « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ^(٤).

وهذا التفسير هو الذي قال به علماء التفسير من السلف ، فبه قال ابن عباس ^(٥)

(١) سورة آل عمران آية ١١٠

(٢) ينظر الشقيطي ، أضواء البيان ج ١ ص ٨٧ .

(٣) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي ، كان من ملازمي النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة بلغت ١١٧٠ حديثاً ، غزا اثنتي عشرة غزوة توفي في المدينة عام ٧٤هـ ينظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٦٨ وتهذيب التهذيب ج ٣ ص ٧٩ والأعلام ج ٣ ص ٨٧ .

(٤) رواه البخاري (٢٦/٦) كتاب التفسير : باب قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) ، وفي (١٣٢/٦) كتاب الاعتصام باب قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) والترمذي (٢٩٦١) كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة البقرة ، وأحمد (٩/٣٢) .

(٥) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حبر الأمة وترجمان القرآن ، ولد بمكة ، وهو من المكثرين في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ١٦٦٠ حديثاً ، شهد الجمل ، وصفين مع علي ، كف بصره في آخر عمره ، وسكن الطائف ، توفي عام ٦٨هـ ، أنظر سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٣١ . وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٧٦ والأعلام ج ٤ ص ٩٥ .

رضي الله عنهما ومجاهد^(١) وسعيد بن جبير^(٢) وقتادة^(٣) -رحم الله الجميع- وغيرهم من علماء التفسير المتأخرين^(٤). وهو الجاري على كلام العرب حيث إن معنى الوسط في كلامهم العدل قال الطبري رحمه الله : «^(٥) وأما الوسط فإنه في كلام العرب الخيار يقال منه : فلان وسط الحسب في قومه أي متوسط الحسب إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه »^(٦) وقال : « التأويل . . جاء بأن الوسط العدل ، وذلك معنى الخيار لأن خيار الناس عدوهم »^(٧) ويدل على ذلك ما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه^(٨) في وصف المهاجرين يوم سقيفة بني ساعدة^(٩):

- (١) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي ، مولى بني مخزوم ، تابعي مفسر ، قال الذهبي : هو شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس توفي عام ١٠٤ هـ ينظر سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٤٩ ، وتهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢ والأعلام ج ٥ ص ٢٧٨
- (٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء الكوفي تابعي إمام ومفريء مفسر ، أخذ عن عباس وابن عمر ، قبض عليه الحجاج ، وقته عام ٩٥ هـ ينظر سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢١ وتهذيب التهذيب ج ٤ ص ١١ والأعلام ج ٣ ص ٩٣ .
- (٣) هو قتادة بن دعامة السدوسي ، أبو الخطاب ، مفسر حافظ ، كان رأساً في التفسير والحديث ، ومفردات اللغة العربية ، مات بواسط في الطاعون عام ١١٨ ينظر سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٢٦٩ وتهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣٥١ والأعلام ج ٥ ص ١٨٩ .
- (٤) ينظر التفاسير الآتية : الطبري ، جامع البيان ، ج ٢ ص ٧-٨ ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ١٥٣ - ١٥٤ ، ابن كثير تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ص ١٩٠ ، الرازي التفسير الكبير ج ٤ ص ٩٧ ، الشوكاني فتح القدير ج ١ ص ١٥٠ .
- (٥) هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر مفسر مؤرخ ، ولد في أمل بطبرستان ، واستوطن ببغداد وتوفي بها ، عرض عليه القضاء فامتنع ، والمظالم فأبى له جامع البيان في تفسير القرآن ، وأخبار الرسل والملوك وغيرهما من الكتب ، ينظر سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٢٦٧ والأعلام ج ٦ ص ٦٩
- (٦) ، (٧) جامع البيان ج ٢ ص ٧ .
- (٨) هو الخليفة الراشد أبو بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان عامر بن كعب التيمي القرشي ، أول الخلفاء ، وأول من آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم من الرجال ، ولد بمكة ، ونشأ سيداً غنياً ، عالماً بأنساب العرب وسيرها ، لقب بعالم قريش ، له ١٤٢ حديثاً توفي عام ١٣ للهجرة ينظر ابن حجر الإصابة ج ٦ ص ١٥٥ والأعلام ج ٤ ص ١٢
- (٩) سقيفة بني ساعدة مكان لقوم من الخزرج هم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج جد جاهلي من ذرية سعد بن عباد وكثير من الصحابة ينظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٣٦٥ وابن قدامة ، الاستبصار ص ٩٣ .

« هم أوسط العرب دارا »^(١) يقصد بذلك بيان خيريتهم ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى^(٢) .

« وهم وسط يرضى الأنام بحكمهم

إذا نزلت إحدى الليالي العظام»

وهذا هو الذي قال به علماء اللغة كالخليل^(٣) وقطرب^(٤) وغيرهما^(٥) ، مع العلم أن من معاني الوسط الجزء بين الطرفين^(٦) ولكن ليس بين القول بأن الوسط هو العدل ، والقول بأنه الجزء بين الطرفين تعارض ، إذ أن الجزء بين الطرفين في موضع اعتدال عن جانبي الانحراف ، قال الطبري رحمه الله : « وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين ، فلا هم أهل غلوفيه ، غلو النصراري الذين غلوا بالترهب ، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه . ولا هم أهل تقصير فيه ، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم ، وكذبوا على ربهم ، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها »^(٧) .

(١) جزء من حديث طويل في وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم رواه البخاري (٨/٥) كتاب فضائل أصحاب النبي

النبي صلى الله عليه وسلم باب فضل أبي بكر رضي الله عنه .

(٢) هو زهير بن أبي سلمى ربعة بن رباح المزني ، من الشعراء الجاهليين ، ولد في مزينة من نواحي المدينة ، وتوفي قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة ، له ديوان مطبوع ، ينظر الأعلام ج ٣ ص ٥٢ ، والبيت المذكور ينسبه المفسرون إلى زهير ولم أجده في ديوانه المطبوع .

(٣) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي من أئمة اللغة والأدب ومن أذكى العرب ، واضع علم العروض ولد بالبصرة سنة ١٠٠ هـ للهجرة وتوفي بها عام ١٧٠ هـ ينظر سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ٤٢٩ والأعلام ج ٢ ص ٤١٣ .

(٤) هو محمد بن المستير بن أحمد ، نحوي عالم بالأدب وباللغة من أهل البصرة ومن الموالي ، هو أول من وضع المثلثات في اللغة ، لقبه سيويه بقطرب توفي عام ٢٠٦ هـ ، ينظر الأعلام ج ٧ ص ٩٥ .

(٥) ينظر الرازي ، التفسير الكبير ج ٤ ص ٩٧ .

(٦) ينظر المعجم الوسيط ، مادة وسط

(٧) جامع البيان ج ٢ ص ٦ .

والعدل يأتي في الغالب وسطاً بين طرفين ذميين قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « اتقوا الله يا معشر القراء . خذو طريق من كان قبلكم ، والله إن سبقتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن تركتموه يمينا وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً »^(١) .

وكتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله^(٢) كتاباً إلى عامل من عماله فقال بعد أن أوصاه بلزوم طريق من سلف : « ما دونهم من مقصر ، وما فوقهم من محسر ، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا ، وطمع عنهم قوم آخرون فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم »^(٣) وهذا متقرر في كلام أهل العلم قال ابن القيم رحمه الله^(٤) : « ما أمر الله بأمر الا وللشيطان فيه نزغتان ، إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو .

ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه ، كالوادي بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميين ، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له فالغالي فيه مضيع له ، هذا بتقصيره عن الحد ، وهذا بتجاوزه الحد »^(٥) .

(١) رواه البخاري (١١٥ / ٦) كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبدالله بن أحمد في السنة (١٨) ، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (١٠) والمروزي في السنة (٢٥) واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٩٠ / ١) .

(٢) هو الخليفة عمر بن عبدالعزيز بن مروان الأموي القرشي ، الخليفة الصالح ، يلقب خامس الخلفاء الراشدين ، ولد ونشأ بالمدينة ووليها للوليد ثم استوزره سليمان بالشام ، وولي الخلافة بعده ، وقد ألف فيه خلق كثير منهم ابن الجوزي ، توفي عام ١٠١ هـ ، ينظر سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١١٤ ، ونهذب التهذيب ج ٧ ص ٤٧٥ ، والأعلام ج ٥ ص ٥٠ .

(٣) رواه أبو داود (٤٦١٢) كتاب السنة : باب لزوم السنة ، والأثر طويل واقتضرت على المراد منه هنا ، وحاصل معنى الجملتين الأوليين كما قال صاحب عون المعبود : (أن السلف الصالحين قد حبسوا أنفسهم عن كشف ما لم يحتاج إلى كشفه من أمر الدين حبساً لا مزيد عليه ، وكذلك كشفوا ما احتج إلى كشفه من أمر الدين كشفاً لا مزيد عليه) للاستزادة ينظر ، العظيم آبادي ، عون المعبود ج ١٢ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٤) هو الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي ، من العلماء الجهابذة ، ولد عام ٦٩١ هـ بدمشق ، وتلمذ لابن تيمية ، من دعاة الإصلاح ، له تآليف كثيرة نافعة منها الصواعق المرسلة ، وإعلام الموقعين وغيرها ألف في ترجمته جمع منهم عبدالعظيم شرف الدين ، وبكر أبو زيد ، ينظر الأعلام ج ٦ ص ٥٦ .

(٥) مدارج السالكين ج ٢ ص ٤٩٦ ، وينظر له ، الفوائد ص ١٢٩ - ١٤٠ وينظر الشنقيطي ، أضواء البيان ج ١ ص ٤٩٤ .

والخطأ في قولهم بأن الفضيلة وسط بين رذيلتين هو في جعل هذه المقولة معياراً بشرياً للحكم على الرذائل والفضائل ، إذ ليس هذا بصحيح لما يلي :

١- أن تحديد الفضيلة والرذيلة هو إلى الله عز وجل ، وذلك جار على مقتضى العدل ، وليس الأمر متروكاً للبشر .

٢- أن هذه الوسطية هي بالجعل الإلهي « جعلناكم أمة وسطاً »^(١) .

٣- أن تحديد الوسط صعب ، وهذا أمر اعترف به القائلون بأن الوسطية معيار يقول أرسطو^(٢) : « إن إدراك الوسط في كل شيء أمر صعب جداً »^(٣) ويقول الغزالي^(٤) عن معرفة الوسط بأنه « من أعقد الأمور وأعصاها »^(٥) .

٤- أن تحديد الوسط أمر نسبي يختلف باختلاف الأشخاص ولذلك قال ابن سينا^(٦) : « ليس وسط الشيء عينه ، بل الوسط بالنسبة إلينا »^(٧) .

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) هو أشهر فلاسفة اليونان الأقدمين ، دعي بأمير الفلسفة ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وتوفي عام ٣٢٢ ق . م . ينظر محمد فريد وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين ج ١ ص ١٦٤ .

(٣) الأخلاق ك ٥ ب ٥ ١٤ نقلاً عن د/ أحمد إبراهيم ، الفضائل الخلقية ص ٢٧٣ .

(٤) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي أصولي فقيه ، وفيلسوف متصوف ، له نحو مائتي مصنف ولد عام ٤٥٠ هـ ورحل لطلب العلم والتعليم له كتب كثيرة وشهرة منها : إحياء علوم الدين ، والمستصفى وغيرهما توفي عام ٥٠٥ هـ ، ينظر الأعلام ج ٧ ص ٢٢ .

(٥) ميزان العمل ص ٢٧٣ .

(٦) هو الحسين بن عبدالله ، فيلسوف ، صاحب تصانيف في الطب والمنطق والطبيعات ، أصله من بلخ ، له مؤلفات كثيرة ، وفيها اختلال في المعتقد لا يحتمل ، وقد ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً منها في كتابه العظيم درء تعارض العقل والنقل ، وقد توفي عام ٤٢٨ هـ ، ينظر سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٣١ والإعلام ج ٢ ص ٢٤١ .

(٧) علم الأخلاق ص ٢٤٥ وينظر د/ أحمد عبدالرحمن إبراهيم ، الفضائل الأخلاقية ص ٢٧٢ وفي هذا الكتاب نقد جيد لنظرية اتخاذ الوسط معياراً للفضائل .

وبهذا يتبين أن الوسطية ليست معياراً بشرياً للفضائل ، ولكنها ميزة تميز بها هذا الدين وتميزت بها شرائعه ، فالدين وأهله بُراء من الانحراف سواء الجانح إلى الغلو، أو الجانح إلى التقصير .

وصور هذه الوسطية ومظاهرها في الدين كثيرة ، إذ هي شاملة لجميع جوانب الحياة ، فكل أمر من أوامر الإسلام جاء على وفق العدل ، ولكنني أورد هنا مثلاً واحداً وسيأتي في ثنايا البحث كثير من أمثلة الوسطية ، وذلك أني أصدر بيان كل مظهر من مظاهر الغلو ببيان العدل والوسط وهذا عرض للمثال : -
إن مواقف الناس تتأرجح فيما يتعلق بالمادة بين موقفين متطرفين :

- فقد زاغت طائفة فرأت أن المال هو الهدف الأسمى والغاية القصوى ، وهم اليهود الذين وصفهم الله عز وجل بقوله : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »^(١).

- وزاغت طائفة أخرى وهم النصارى الذين حرموا أنفسهم حقها من الحياة ، فابتدعوا الرهبانية « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها »^(٢).

وأمام هذين الانحرافين جاء الاسلام بالعدل ، وأعطى كل ذي حق حقه فقال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »^(٣) وقال : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »^(٤).

(١) سورة البقرة آية ٩٦

(٢) سورة الحديد آية ٢٧

(٣) سورة القصص آية ٧٧ وينظر في تفسير الآية ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٩٩

(٤) سورة الأعراف آية ٣٢ .

ونهى عن الإفراط في حب المادة : « اعلّموا أنها الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »^(١).

كما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التشديد على النفس والترهب كما يفعل النصراني فقال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »^(٢).

وبهذا يتبين أن أصل الدين مخالف للغلو ، فهو دين الوسطية والاعتدال ، وكانت هذه ميزته عن سائر الأديان .

(١) سورة الحديد آية ٢٠

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٤) كتاب الأدب باب الحسد ، وأبو يعلى (٣٦٩٤) وفي سنده سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء وثقه ابن حبان وقال الذهبي في الكاشف (وثق) وقال ابن حجر في التقریب (مقبول) قال الهيثمي (رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء وهو ثقة) مجمع الزوائد (٢٥٦/٦) وينظر ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٣١٦ والسيوطي الدر المنثور ج ٤ ص ١٧٨ والهندي ، كنز العمال حديث رقم (٥٣٤٦) وقال محقق مسند أبي يعلى : إسناده حسن ج ٦ ص ٣٦٥ .